مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522 ISSN: 2958-8537 Issue: N21
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الخرطوم بين يدي المهدي وغردون:
دراسة لمواقف الرجلين بين التشدد والاعتدال.

Khartoum in the hand of the Mahdi and Gordon: study of the attitude of the two men between moderation and extremism to identify

د. أحمد محمد أحمد مُركز
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة البحر الأحمر – السودان.

د. عوض عبد الجليل أبوبكر محمد
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة البحر الأحمر – السودان.
https://orcid.org/0000-0003-0782-622X

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

Abstract :

The study aimed Khartoum in the hand of the Mahdi and Gordon: study of the attitude of the two men between moderation and extremism to identify the positions of the two men who stand at opposite ends of each ather around Khartoum, and the position of either one through the messages exchanged between them during the siege of Khartoum.

The study followed the documentary historical method.

The study found that the Mahdi has taken appropriate stance of the man after realizing his status among his people. therefore, thou great deal of tolerance and moderation, while Gordon failed to evaluation character Mahdi and his status, so characterized his handling of a great deal of militancy and indifference.

Keywords: Al-Mahdi - Gordon - messages - moderation - extremism.

المستخلص:

هدفت الدراسة " **الخرطوم بين يدي المهدي وغردون: دراسة لمواقف الرجلين بين الاعتدال والتشدد**" إلى التعرف على مواقف الرجلين الذين يقفان على طرفي نقيض من بعضهما البعض حول الخرطوم، وموقف أي منهما من الآخر من خلال الرسائل التي تبودلت بينهما أثناء حصار الخرطوم.

- اتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي- الوثائقي.
- توصلت الدراسة إلي إن المهدي اتخذ موقفاً مناسباً من غردون بعد أن أدرك مكانة الرجل الكبيرة بين قومه، فخاطبه بقدر كبير من التسامح والاعتدال. في حين أخفق غردون في تقييم شخصية المهدي ومكانته، لذا اتسم تعامله بقدر كبير من التشدد وعدم المبالاة.

الكلمات المفتاحية: المهدي- غردون- الرسائل- الاعتدال- التشدُد.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المقدمة:

بعد أن أجبرت بريطانيا الحكومة المصرية على قبول سياسة إخلاء السودان، وقع الاختيار على غردون للتنفيذ، وسافر من لندن إلى القاهرة، وفي 16 يناير 1884م أصدر الخديوي فرماناً بتعيينه حاكماً على السودان بغرض إخلاء الحاميات والموظفين والمدنيين وإنشاء حكومة نظامية تتولي شؤون الحكم، تحرك غردون من القاهرة نحو الخرطوم في 26 يناير 1884م.

بدأت العلاقة بين المهدي وغردون بشكل غير مباشر من خلال الرسالة التي أرسلها غردون لدي وصولة إلي كورسكو باسم محمد أحمد يسميه فيها سلطاناً علي كردفان وأمر حسين بك خليفة مدير بربر بإرسال الكتاب إلي محمد احمد مع رسول خاص مصحوب بهدية وهي جبه جوخ حمراء ثقص3وقفطان حرير وطربوش أحمر ومركوب أحمر، نفذ حسين بك خليفة الأمر وأرسل الرسالة والهدايا إلي المهدي في كردفان بوساطة رسوله "عبد الله العبادي" في النصف الأول من شهري فبراير 1884م. ومن خلال هذه الرسالة شرح غردون للمهدي طبيعة المهمة التي كُلف بها من قبل الخديوي، كما انه تحدث عن نفسه وكيف انه يشفق علي المسلمين ويجلهم ويخدمهم ويحترمهم، وانه يسعي لفتح الطرق لزيارة قبر النبي (ﷺ)، واتصال المودة بين المسيحيين والمسلمين...الخ.

أهداف الدراسة:

1- هدفت الدراسة إلى التعرف على موقف الرجلين الذين يقفان على طرفي نقيض حول الخرطوم، وموقف أي منهما من الآخر من خلال المكاتبات التي تمت بينهما.

2- التعرف على وسائل الضغط التي استخدمها الرجلين ضد بعضهما البعض للمحافظة على موقفهما.

3- محاولة قياس المسافة المتأرجحة بين الرجلين وأسباب ذلك التأرجُح.

أهمية الدراسة:

تسليط الدراسة الضوء على شكل معين من العلاقة بين المهدي وغردون من خلال الرسائل والمكاتبات التي تبودلت بينهما من أجل الخرطوم التي أصبحت تمثل قاسماً مشتركاً بين الرجلين.

مشكلة الدراسة:

تتلخص مشكلة الدراسة في أن المهدي وغردون شخصيتين مختلفتين في الأهداف والرؤى والمنهجية، وهما يتصارعان حول هدف واحد في وقت عاصف بالإحداث الأمر الذي يطرح سؤال رئيس وهو كيف يتمكن الرجلين من تسوية العلاقة بينهما سلماً في ظل كل هذه التناقضات والمتغيرات والأحداث العاصفة؟

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي- الوثائقي في معالجة المصادر والمراجع التاريخية التي تناولت الفترة مع محاولة تحليل مختلف الإفادات والروايات التاريخية بغرض الوصول الي نتائج أفضل في تتبع مسار العلاقة بين المهدي وغردون من خلال مراسلاتهم ومكاتباتهم مع بعضهما البعض.

النطاق الزمني والمكاني:

تنحصر الدراسة في فترة زمنية قصيرة نسبياً تبدأ في منتصف فبراير 1884م عندما أرسل غردون رسالته الأولي للمهدي، وتنتهي في 25 يناير 1885م باجتياح الأنصار للخرطوم ومقتل غردون في نفس اليوم.

أمَّا النطاق المكاني للدراسة يمتد بين كورسكو في شرق السودان ومدينة الأبيض في غرب السودان ثم ام درمان والخرطوم عاصمة السودان.

فروض الدراسة:

1- لعب الاختلاف الديني دوراً في عدم تقارب الرجلين.

2- كان المهدي أكثر إدراكا وتقديراً لغردون من الأخير.

3- مثل غردون سبباً رئيسيا في المصير الذي انتهي إليه.

4- على الرغم من أن غردون صاحب شخصية متعنتة إلاَّ أن حملة الإنقاذ مثلت السبب المباشر في مقتل غردون.

المحور الأول: تبادل الرسائل بين الرجلين:

1- رسائل المهدي لغردون:

نظر المهدي إلى غردون [1]، باعتباره شخصية بريطانية تمثل بلادها لهذا السبب وجه إلية عدداً من الرسائل، والرسائل جزء مهم من منهج المهدية في تبليغ الدعوة لذلك درج المهدي على مخاطبة غردون عبر الرسائل

1- شارلس غردون (1833 – 1885م): اسكتلندي أنضم إلى المهندسين الملكيين في عام 1852، وفي عام 1860م غادر بلاده ليشترك في حرب القرم، ثم أوفد إلى الصين وقام بدور بارز في القضاء على ثورة (Tai – ping)، التي نشبت هناك ما بين عامي (63 – 1864م)، عمل حاكماً للمديرية الاستوائية ولقد عمل لتوسع رقعة الأراضي المصرية، كما أنشأ عدة محطات على النيل الأبيض للقضاء على تجارة الرقيق، استقال من منصبه عام 1786م ليعود مرة أخرى في عام 1877م كحاكم عام للسودان قبل أن ينهي خدماته عام 1880م، عمل في عدة مناطق من أسيا وافريقيا، ثم عاد مرة أخرى للسودان في مهمة رسمية كلف بها من قبل بلادة عام 1884م ، قُتل على أيدي أنصار المهدي عند اجتياحهم الخرطوم في 1985/1/26م.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

التي شرح له فيها الدعوة وطبيعتها وأهدافها ودعاه إلى الاستسلام والإسلام في بعض الأحيان، بلغت مُجمل رسائل المهدي إلى غردون ثمانية رسائل، كانت الرسالة الأولى في(7 جمادى أول 1301هـ/ الموافق 5 مارس 1884م)، استهل المهدي هذه الرسالة بشرح عن طبيعة الدعوة وأهدافها:(إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم ما يقربهم من ربهم ويعملوا بما يصلحهم في آخرتهم)، هكذا يوضح المهدي لغردون طبيعة مهمته الدينية التي هدفت أساساً إلى هداية الناس إلى طريق رسول الله (ﷺ)، حيث يقول:(أن مهديتي من الله ورسوله ولست في ذلك بمتحيل ولا مريد ملكاً ولا مالاً ولا جاهاً فأيدني الله بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى)، ثم يدعو غردون إلى تغيير مسلكه والعودة إلى الله:(فأنب إلى الله الباقي وأطلب لجلاله وأطلب عز الآخرة)، وفي نهاية الرسالة يدعوا غردون بصراحة إلى التسليم والإيمان به وإتباعه ويحذره من عدم الاستجابة:(بعد هذا البيان فأن اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وإلا هلكت وكان عليك إثمك ومثل آثام جميع ما اتبعك) [2].

أمَّا الرسالة الثانية كانت في (شهر شوال 1301هـ/ قبل27 يوليو1884م)، وأكد خلالها لغردون بعض ما سبق وأن شرحه في الرسالة الأولى بشأن مهديته:(فأعلم أني المهدي المنتظر وقد خاطبتك قبل هذا بإيضاح أمري ودعوتك إلى الإسلام والإيمان)، ويشير على غردون بأنه مهتم لأمره وراغب في هدايته وذلك انطلاقاً من الرسالة التي كلف بها من رب العباد لهداية الخلق:(رغبت لك الهداية وهممت بأمرك قياماً بالواجب الذي طوقني به ربي) [3].

جاءت الرسالة الثالثة في (2 محرم 1302هـ/ الموافق 22أكتوبر1884م)، وهي أكثر تعبيراً عن منهج المهدية المتشدد في الدعوة:(فأن أنبت إلى الله تعالى وأسلمت وسلمت الأمر لله ولرسوله (ε) وصدقت بمهديتنا، أرسل مخاطبة منك إلينا لنرسل لكم من يأمنكُم، وأن لم تفعلوا ذلك فأذنوا بحرب من الله ورسوله وأعلموا أن الله تعالى قادر على هلاككم كما أهلك من قبلكم) [4].

بعد أن أستقر المهدي في ديم أبي سعد، بعث برسالته الرابعة إلى غردون في مطلع (شهر صفر 1302هـ الموافق 19نوفمبر1884م)، وأبدى خلالها المهدي إلحاحه على ضرورة استسلام غردون الذي بات أكثر تعنتاً مع

2- من المهدي إلى غردون، 7 جماد أول 1301هـ، إنذارات ((ب)) مهدية 109/18/3/8، دار الوثائق القومية الخرطوم.
3- من المهدي إلى غردون، شوال 1301هـ ، دفتر النجومي، مهدية 26/36/8/1، دار الوثائق القومية الخرطوم.
4- من المهدي إلى غردون، 2 محرم 1302، مهدية 17/3/9، دار الوثائق القومية الخرطوم.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وصول أخبار حملة الإنقاذ:(لست مبالياً لهم ولا بغيرك وسيكون لهم أسوه بجيوش الشلالي وهكس فسلم تسلم أنت ومن معك وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك) [5].

لم ييأس المهدي من هداية أو استسلام غردون لذلك عاد وجدد مراسلته وبعث له بثلاث رسائل على التوالي حملت تواريخ (19و20و21 ربيع أول 1302هـ/ الموافق 6و7و8 يناير 1885م)، ففي الرسالة السادسة دعا غردون إلى الاستسلام نظير سلامته ونبه عليه بعدم التعنت والتعلق بالحملة الإنجليزية لأنها هالكة، وتحدث له عن الأهداف العُليا لمهديته وضمن لغردون سلامته في حالة إسلامه واستسلامه ويقول:(موعود بجميع البلاد وما دام أن الله هو القادر فلا يضرني إنكار منكر، فان سلّمت وأسلمت قد عفونا عنك وسامحناك، وأن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله) [6].

أما رسالة المهدي السابعة إلى غردون:(إذا أردت أن تجتمع مع الانجليز فنوصلك إليهم). (قد سمعنا مراراً فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا، والآن ما آيسنا من خيرك وسعادتك لما سمعنا من الفضل فيك، ولذلك طالما كاتبناك لترجع إلى وطنك وتحوز فضالتك الكُبري).

جاء في نهاية الرسالة:(أن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا أن أردت أن تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام) [7].

أمَّا في رسالة المهدي الأخيرة (بتاريخ 21 ربيع الأول 1302هـــ/ الموافق 8 يناير1885م)، جدد لغردون الدعوة بأسلوب لا يتناسب مع منهج المهدية لكن يأتي الإستثناء انطلاقاً من إشفاق المهدي على غردون بالإضافة إلى تقدير المهدي لعدم إدراك غردون لحقيقة الدعوة التي قدمت له، وكان يأمل المهدي في استجابة غردون وبالتالي يحوز على خير الدارين حيث يقول المهدي:(قد عزرناك في عدم إجابتك لنا بالطاعة وذلك لأنك لم تدرى الحقيقة التي نحن عليها وبحسب مقامنا ودلالتنا إلى الله حتى من هو مثلك لم يطب قلباً بصرف النظر عنه، وما زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل، فاجب داعي الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل، وأقول لك أن عزة الإسلام خير لك وابقي لدوام احترامك في الدارين فتحلى بها أن عقلت) [8].

---

5 – نعوم شقير: **تاريخ السودان**. تحقيق: محمد ابراهيم أبو سليم. دار الجيل. بيروت. 1981م. ص 514.

6 – من المهدي إلى غردون، 19 ربيع أول 1302هـ، إنذارات ((ب)) مهدية 252/3/8، دار الوثائق القومية.

7– شقير: المرجع السابق. ص 525.

8 – من المهدي إلى غردون، 21 ربيع أول 1303، مخطوط يوسف ميخائيل، مهدية 72/11/18 دار الوثائق القومية.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

2- ردود وتعليقات وتجاهل غردون لرسائل المهدي:

رد غردون الأول:

من غردون باشا والي السودان إلي محمد احمد المتمهدي: وصلني كتابك الركيك العبارة العاري من المعني الدال على سوء نيتك وخبث طويتك، ثم يتحدث عن سحق المهدي، وينتهي إلى القول:(كنت لا أري حاجة إلى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة عادم الذمة وها أنا مستعد لقدومك ومعي رجال اقطع بهم أنفاسك والعاقل من تدبر والسلام) [9].

رد غردون على رسالة المهدي الثالثة التي كانت بتاريخ 22 أكتوبر 1884م:

علي الرغم من إن غردون أورد نص هذه الرسالة في مذكراته ولكنه تجاهل تماما أن يفكر في كتابة أي رد للمهدي، لكنه علق في مذكراته بتعليق يوضح جانب من ازدرائه بالمهدي وما أصبح عليه من قوة ونفوذ فكتب تعليقا على دعوة المهدي له بالإسلام والتسليم قائلاً:(أن الطفل يرقص فرحا عندما يري نفسه في المرآة للمرة الأولي ومن الطبيعي أن يفرح)[10].

قبيل استلام غردون لرسالة المهدي الرابعة، وصلته رسالة من أحد معاونيه وهو صالح بيه الذي أخبر غردون بوصول المهدي لام درمان في معية أعداد كبيرة من الجيوش والأنصار. كان تعليق غردون ينطوي على قدر كبير من سوء التقدير وعدم المبالاة بقوة المهدي: This is all rubbish [11].

في نفس تاريخ استلام غردون لرسالة المهدي الرابعة التي كانت بتاريخ 22 أكتوبر 1884م، تسلم رسالة من الأميرال هيوت Hewitt charmed الذي كان يتواجد في سواكن بشرق السودان ودعا غردون لعقد اتفاقية سلام مع المهدي لمدة ستة أشهر لضمان سلامته، على الرغم من عدم وجود آلية لتنفيذ هذا الاتفاق. لكن علق غردون على المقترح بقوله:(عندما استشرت نفسي وجدت المقترح يتنافى مع قيمي)[12].

رد غردون على رسالة المهدي الرابعة 19 نوفمبر1884م

9- شقير: مرجع سبق ذكره. ص 455.

10- C.G. GORDON, The Journal of major At Khartoum, Printed From the original MSS, The Riverside Press, Cambridge, 1885, P 207.

11- I bid, P 149.

12- I bid, P 202.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

لست أبالي بك ولا بجيوشك وستري ما يحل بك وبجيوشك من النكال عند مجيء الجيوش الانجليزية، بل إذا لم يأتوا ففي الكفاءة لأن أعرفك قدرك ولا تغرنك كثرة أنصارك فالبغي له مصرع والسلام[13].

رد غردون على رسالة المهدي السادسة 6يناير1884م:

كان رد غردون هو رفض الاستسلام بشكل قاطع.

ردة فعل غردون على رسالة المهدي السادسة التي جاء فيها:

(موعود بجميع البلاد وما دام أن الله هو القادر فلا يضرني إنكار منكر، فان سلّمت وأسلمت قد عفونا عنك وسامحناك، وأن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله).

نظر غردون إلى قول المهدي بشيء من الاستغراب والدهشة ولم يخالجه شك في إن كلام المهدي بعيد عن العقل والمنطق بل هو مجرد ادعاء باطل [14].

أما رسائل المهدي الأخيرة على الرغم من إن غردون أشار إليها في يومياته ولكنه تجاهل أن يرد أو حتى يعلق عليها.

3- الخط البياني لمكاتبات الرجلين بين التشدد والاعتدال:

أولاً: المهدي:

- جاء في رسالة المهدي الأول:(بعد هذا البيان فان اهتديت وسلمت حُزت شرف الدنيا والآخرة وإلاَّ هلكت).
- وفي الرسالة الثانية:(فأعلم أني المهدي المنتظر ودعوتك إلي الإسلام والإيمان).
- وفي الرسالة الثالثة:(فان أنبت إلي الله تعالي وأسلمت وسلمت وان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله (ε)).
- في الرسالة الرابعة:(فسلم تسلم وإلا فالحرب بعد ذلك).

ثم يبدأ الخط البياني لنبرة المهدي في الهبوط من خلال آخر رسالتين:

- ففي الرسالة السابعة:(ما آيسنا من خيرك وسعادتك لما سمعنا من الفضل فيك ولذلك طالما كاتبناك لترجع إلى وطنك وتحوز فضالتك الكُبري).
- وفي الرسالة الثامنة والأخيرة:(قد عزرناك في عدم إجابتك لنا بالطاعة وما زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك).

13- شقير: المرجع السابق. ص 515.

14- C.G. GORDON, op cit, P 40.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ثانياً: غردون:

- جاء في رده الأول:(لا أري حاجة إلى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة عادم الذمة).
- تجاهل رد الرسالة الثانية.
- أيضا تجاهل رد الرسالة الثالثة ولكنه علق عليها في يومياته بازدراء.
- في رده رسالة المهدي الرابعة:(لست أُبالي بك وستري ما يحل وبجيوشك من النكال).
- أما رده على رسالة المهدي السادسة فقد رفض الاستسلام بشكل قاطع.
- تجاهل تماماً الرد على رسائل المهدي الأخيرة على الرغم من إن المهدي عول على مهادنته ومخاطبته بأسلوب رقيق أقرب إلى النُصح من التهديد والوعيد، ولكن مع ذلك ظل غردون مُتعنتاً متعجرفاً غير مبالياً، وبالتالي يمكن القول بأن المهدي بدأ مكاتباته لغردون متشدداً في نبرته ووعيده وانتهي معتدلاً متسامحاً. أمَّا غردون فقد ظل متمسكاً بتشدده وعجرفته من البداية حتى النهاية. ويبدو أن اقتراب وصول حملة الإنقاذ مثل عامل مشترك للرجلين ولكن من زاويتين مختلفتين، فالمهدي أصبح استسلام المدينة أولوية قصوى بالنسبة إليه أكثر من إسلام واستسلام غردون، أمَّا الأخير فقد مثلت الحملة له أمل كبير في القضاء علي المهدي ونجاحه في مهمته وإنقاذ سمعته وشرفه العسكري كضابط بريطاني عظيم.

المحور الثاني:

الأسباب التي جعلت غردون يتشدد ويتعنت ويتجاهل دعوات المهدي المتكررة:

علي الرغم من أن المهدي خاطب غردون بأساليب متنوعة، طارحاً أمامه كل الخيارات سواء تلك التي تعبر عن منهج المهدية في الدعوة من إسلام وتسليم وإتباع وتصديق بالمهدي وبرسالته بعد شرحها، والتلويح باستعمال القوة في حالة عدم الاستجابة، أو الأسلوب الرقيق انطلاقاً من إشفاق المهدي على غردون وحرصاً على سلامته من الهلاك، هذا فضلاً عن تحبيب الإسلام له وشرح مزاياه كي يقبله غردون ولكن مع كل ذلك أصرّ على عدم الاستجابة. وهُنا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الأسئلة ما هي الأسباب التي جعلت غردون يتشدد ويتعنت إلى هذه الدرجة غير آبها بما يدور حوله من مخاطر جسام!! لماذا لم يفكر ولو مره واحده في التنازل والانصياع أو الاستسلام للمهدي أسوة بمن سبقه من الأوربيين الذي تظاهروا بالإسلام حفاظا على حياتهم؟ علي الرغم من المهدي في آخر رسائله استثناه من

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522 ISSN: 2958-8537 Issue: N21
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

القاعدة العامة واكتفي بأن يسلم غردون المدينة مقابل حياته أو حتى السماح له بالعودة إلى وطنه دون مقابل أو فدية؟ علما بأن الوضع العسكري كان يصُب لصالح المهدي!! لماذا لم يدرك غردون ذلك؟

يبدو أن هناك أسبابا جعلت غردون يتخذ هذا الموقف **أهمها:**

1- الرأي السلبي المسبق للبريطانيين عموما حول الثورة المهدية:

ربما لم يهتم البريطانيين كثيرا بالثورة المهدية عند قيامها ولكن أخذت آراؤهم تتطور بشكل واضح عندما أخذت الحكومة البريطانية تضغط على الحكومة المصرية بضرورة إخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية من البلاد ومن خلال معارضة جانب من البريطانيين للإخلاء كشفوا عن أراءهم وانطباعاتهم عن الثورة المهدية، فها هو (روبرت فالكن Rbert flkin) [15]، يذهب إلى أن المحافظة على السودان بواسطة الحكومة المصرية أفضل من إدارته بواسطة الهمج الذين سيكونون بديلاً للحكومة المصرية في حالة انسحابها، بمعنى أنه رأي أن الثورة المهدية عبارة عن جماعات من الهمج [16].

وصف صمويل بيكر [17]، أتباع المهدي بالمتمردين وبأنهم مولعين بالحرب وعندما يفقدون العدو المشترك سينازعون بعضهم البعض وأضاف أن السودان سيصبح مرتعاً خصباً لتجارة الرقيق وأن البلاد ستنتكس إلى الوحشية

15- روبرت فالكين – وليم (1853- 1926م): طبيب ورحالة بريطاني سافر إلى يوغندا عبر السودان في عام 1878م في مهمة تبشيرية وعاد إلى بلاده في عام 1879م يعتبر أول بريطاني يطل على بحيرتي البيرت وفكتوريا له عدد من المؤلفات الطيبة وهو صاحب معرفة بإفريقيا.

16- Abbas Ibrahim. M. The British debate on the containment of the Sudanese Mahdist Revolution Nov 83. Feb 1885, p 15

17- بيكر باشا صمويل – وايت 1821-1893م ، إداري ورحالة بريطاني، زار مايروتيس Maurtius في 1844م، أسس مستعمرات زراعية لبلاده في (كيلون Keylon) ، في (46-1855م) ، تعهد بإدارة إنشاء طرق حديدية في البحر الأسود في (59-1860م) ، قام هو وزوجته برحلة خلال السودان لاكتشاف منابع النيل الأبيض ولقاء المكتشفين (سبيكJ. A. Cpeke) ، و(جرانت J. A. Grant) ، وصل إلى الخرطوم في الستة أشهر الأخيرة من عام (1862م)، لأعداد حملة إلى أعالي النيل الأبيض، بدأ رحلته في نهاية عام 1862م بثلاثة بواخر نيلية ووصل إلى غندوكرو حيث قابل سبيك وجرانت، قام بيكر باكتشاف بلاد اللاتوكا (Latuka) ووصل إلى جنوب شرق البحيرة العظمى وأطلق عليها اسم (البرت نيازا)، ثم عاد إلى غندوكرو في (مارس1865م)، ثم غادر السودان عن طريق بربر – سواكن. في (1869م)، قابل الخديوي إسماعيل الذي عينه حاكماً للاستوائية لمدة أربعة سنوات ومنحة رتبة الفريق ولقب باشا على أساس إرساء الحكم المصري في الاستوائية ومحاربة تجارة الرقيق وفتح الطريق إلى البحيرات العظمى، وأمدته الحكومة المصرية بكافة الاحتياجات التي تساعده في أداء مهمته إلاَّ أن نجاحه كان محدوداً، في(1873م) انتهت فترة تعاقده مع الحكومة المصرية وعاد إلى بلادة، عند قيام الثورة المهدية وتقرير سياسة التخلي عن السودان، ناضل بيكر بقوة ضد هذه السياسة ، له عدد من المؤلفات عن رحلاته ومغامراته، توفى في عام (1893م).

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

والفوضـــى الكاملة، وانتهى إلى أن التراجع عن عدم القضـــاء على الثورة المهدية يؤذي الهيبة البريطانية[18]. **أما غردون** Gordon قال إن السماح للمهدي بدخول الخرطوم لا يعني مجرد عودة السودان إلى الهمجية، ولكن يعني تهديداً مباشراً لمصر نفسها ودعا إلى القضاء على الثورة المهدية[19].

أمَّا الصـــحافة البريطانية فهي الأخرى لعبت دوراً في محاولة رفع القناع عن محتوى الثورة المهدية فصـــحيفة التايمز (Times) منذ (يناير 1883م)، اتخذت موقفاً معادياً من المهدية وذكرت أن انسحاب السلطات العسكرية من السودان يعني على الأرجح نصر لطبقة تجار الرقيق، وأن احتمال إلغاء تلك التجارة في تلك الأقاليم تتضاءل بسبب استمرارية الثورة وأنه مما لا شك فيه أن الإخماد النهائي لتجارة الرقيق سيتعثر أثر نجاح المهدي [20].

بعد هزيمة هكس باشا نادت الصحيفة بالقضاء على الثورة المهدية ودعت الحكومة البريطانية إلى الإمساك بذمام الأمور ومن ثم السيطرة على الخرطوم، وزعمت الصحيفة أن أخلاء السودان سيؤدي إلى ارتداد السودان إلى فوضى كاملة، وأن الخرطوم ستصبح مركزاً للسرقة وتجارة الرقيق لذلك طالبت التايمز بفرض السيطرة البريطانية عليه [21].

– **صحيفة (البول مال غازيت Pallmall Gazztte)**، ذكرت على لسان (مديرها ستد T .W Stead)، إن الثورة المهدية ستنتهي بالمجتمع إلى الانحلال والتفسخ والفوضى [22].

– **صحيفة (Fortnightly Review)** تحدثت على لسان (Cossan) بأن السيطرة على السودان بواسطة المهديين تعني أنه سيرتد إلى الفوضى الكاملة، ورأت انه ليس هناك سبب يجعل بريطانيا تسمح بعودة البربرية إلى السودان، فالإنسانية مشتركة ومصلحة بريطانيا ومستقبل تنمية تجارة إفريقيا، كل هذه الجهات ستخسر السودان إن آل أمره إلى المهديين وذكرت أن نجاح المهدي سيؤدي إلى إعاقة دخول الحضارة إلى المنطقة [23].

18- Abbas Ibrahim, op, cit, p 15.

19- جلال يحيى: **الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان**. ط 1. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1959م. ص 128.

20- Abbas Ibrahim, op, cit, p 20.

21- Ibid, P 22.

22- Ibid, P 23.

23- Ganem. Europe State in Sudan, From The nightly Review, October 1 /1884, P 526.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

– **أما (جمعية أبطال الرق)**، فقد اعتقدت أن استمرارية الثورة المهدية تعني حكم السودان بواسطة البرابرة وتجار الرقيق ولفتت الجمعية انتباه الحكومة البريطانية إلى أن إخلاء السودان للمهدي يؤدي إلى تزايد نشاط تجارة الرقيق في البلاد واشتكت الجمعية إلى اللورد (جرانفيل)، بأن الحكومة البريطانية تركت المسألة السودانية إلى تجار الرقيق وكتبت مذكرة إلى الحكومة دعتها فيها إلى حصر الثورة في غرب السودان واحتفاظ الحكومة بأواسط وشرق وشمال السودان [24].

– **بالنسبة للأحزاب السياسية:** صّور المحافظين الثورة المهدية بالعنف وذكر (ستافورد Sttafford)، قائد المعارضة أن السودان لو ترك سيصبح فريسة لتلك القبائل المتوحشة وتعصب قادتها وفي هذه الحالة ستعُم الفوضى لتنتشر في مصر نفسها، وخلص إلى القول إن إخلاء السودان للمهدي سيؤدي إلى احتكاك القبائل الهمجية بالحدود المصرية ، واتفق قادة المحافظين على أن سيادة المهدي على السودان تعني سيادة الفوضى والبربرية والانتهاكات والسلب والأسى وانتشار الدمار والخراب وطول معاناة الناس، هذا فضلاً عن تفشي انتشار تجارة الرقيق والاسترقاق [25]، أما فورستر Forster أحد قادة المعارضة ذكر أن نجاح المهدي في الاستيلاء على السودان يدفع المسلمين والحركات الدينية المتعصبة إلى الانضمام إليه، أمَّا (اشموند بارت ليت Bartlett Ashmond)، وصف الثورة المهدية بأنها حركة عدوانية متعصبة وأنها ستؤدي إلى تقهقر الحضارة أمام البربرية، وأن ملايين الناس سيعانون من قسوة الاسترقاق لو بسط المهدي سلطانه على السودان.

نخلص إلى أن آراء غالبية البريطانيين من أحزاب وموظفين سابقين في السودان وصحافة كانوا يروا في الثوار مجرد همج وبرابرة ووحوش وتجار رقيق ومثيرو شغب وفوضي عارمة، حتى أن غردون نفسه كان جزء من الرأي العام السلبي الذي تشكل ضد الثورة المهدية وربما هذا العامل كان يقف وراء تعنته وتشدده وتجاهله للمهدي.

2- موقف غردون من الإسلام:

معروف عن غردون بأنه شخصية مسيحية متشددة – فبعكس كثير من المسيحيين الأوربيين الذين تظاهروا بأنهم مسلمين لينجو بحياتهم ظل غردون متمسكاً بمسيحيته لآخر لحظه في حياته– بل تعجب غردون على المصير الذي

24- Ibid, p 656

25- Abbs Ibrahim, op, cit p 29.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
العدد الواحد والعشرون: ISSN: 2958-8537 Issue: N21 ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

انتهي إليه هؤلاء عندما قال:(لا يملك الإنسان إلاَّ أن يتعجب كيف يجمع المهدي كل هؤلاء الأوربيين الذين حوله- راهبات، قساوسة، يونانيين، ضباط نمساويين – يا له من خليط) [26].

كانت عقيدة غردون كما يقول تشرشل المصدر الحقيقي لقوة عزيمته، كان واثقاً من أن هناك بعد هذا الوجود حياة أُخري تنتظره- حياة لو انه كان مخلصاً ومحقاً في هذه الدنيا- فسوف تمنحه قدراً أعظم للعمل الصالح، قال مره لرفيق سفر:(أنظر إلى الآن ليس لدي إلا جيوش صغيرة لقيادتها ولا مُدن لحكمها. آمل أن يخلصني الموت من الألم وأُعطي جيوشاً عظيمة وتكون لدي مُدن كبيرة تحت حكمي)، وعلق تشرشل: وهكذا كان أمله المُشرق في الخلود[27].

في 13 أكتوبر كتب له موظف مصري سابق رسالة من ام درمان بواسطة امرأة كانت تعمل جاسوسة اقترح عليه أن يتظاهر بالإسلام لينجو بحياته ويهادن المهدي ولكنه رفض بشكل قاطع مجرد التفكير في تغيير دينه إلي الإسلام وتحجج بأنه في مره من المرات دعا خادمه ويُدعي محمد إدريس لتغيير دينه إلي المسيحية ولكنه رفض بشكل قاطع، لذلك تساءل غردون طالما الأمر كذلك لماذا تدعونني لدخول الإسلام؟ [28].

في 16 أكتوبر 1884م أرسل سلاطين رسالة إلي غردون بواسطة جاسوس دعاه في إلي التظاهر باعتناق الإسلام وتسليم الخرطوم للمهدي بشروط معينه وبهذه الطريقة يتجنب غردون دمار المدينة وسفك دماء مواطنيها، لكن غردون رفض مجرد التفكير في المقترح، كما انه تأسف كثيراً علي سلاطين باشا الذي اضطر لتغيير ديانته إلي الإسلام وتشكك في إن سلاطين مؤمنا حقيقياً بالمسيحية [29]، ولم يقتنع غردون بالظروف التي أجبرت سلاطين لاتخاذ هذا الموقف الذي أدي إلي حرمان سلاطين من عطف غردون واحترامه حتى عندما أشفق عليه في مرحلة ما وصف غردون هذه الشفقة بشفقة إنسان علي جُرذ [30].

3- اقتراب وصول حملة الإنقاذ:

من بين العوامل القوية التي دفعت غردون للتعنت وتجاهل كتابات المهدي الأخيرة هو أحساسة باقتراب وصول حملة الإنقاذ، ففي 17 نوفمبر وقبيل وصول الحملة إلي دنقلا كتب الجنرال ولسلي قائد الحملة رسالة إلي غردون احتوت

26- ونستون تشرشل: **حرب النهر السودان 1898م**. ترجمة: عبد الله محمد سليمان. دار جامعة القرآن الكريم للطباعة. الخرطوم. 1999م. ص 63-64.

27- نفس المرجع: ص 68.

28- C.G. GORDON, op. cit, P 174- 175.

29- Ibid, P 178.

30- تشرشل: المرجع السابق. ص 62- 63.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

علي قدر كبير من الثقة في دحر المهدي جاء فيها: لست أعطيك تفصيل القوات التي يتألف منها الجيش ولكنها كافية لسحق محمد احمد وأنصاره ومحو ذكره من الوجود، وكلما زاد عدد مقاتلته زاد سرورنا لأنه بذلك يزيد عدد قتلاهم، ويود جنودي أن يثبت المهدي في ساحة الحرب لأنهم يحبون القتال ويعظم أسفهم إذا قطعوا هذه المسافة الطويلة ولم يجدوا فرصة لقتل محمد احمد والفتك بأنصاره [31]، وربما هذا الأمر كان من الأسباب القوية التي جعلت غردون باشا يتعنت ويضيع الكثير من فرص نجاته، كان لديه إحساس قوي بوصول حملة الإنقاذ تحت أي لحظة للدرجة التي جعلته ينشر الملصقات علي الجدران تعلن إنباء تقدم الجيش البريطاني المنتصر، وقام باستئجار جميع المنازل الممتازة علي شاطئ النهر لسكن ضباط الحملة القادمة للإنقاذ [32]، وفي 20 يناير وصلت أخبار هزيمة الأنصار في أبو طليح ثم نزول الجيش البريطاني في المتمة وهزيمة النور عنقرة فانتعشت آمال غردون باقتراب الفرج [33].

الخاتمة:

نخلص في خاتمة هذه الدراسة بأن الإمام محمد أحمد المهدي وغردون باشا مثل كل واحد منهما شخصية مختلفة عن الأخر، من حيث الأهداف والرؤى والمنهجية، والنظرة للأمور بمنظار مختلف، غير أنهما تصارعا حول هدف واحد في وقت مُعقد به الكثير من الأحداث والتطورات العاصفة، والتي لم تعطي أي منهما فرصة لتسوية العلاقة بينهما سلماً، فأمر سقوط الخرطوم ومقتل غردون باشا كان عبارة عن تدرج منطقي للواقع المُعاش في تلك الفترة.

نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج وفقا للآتي:

1- بادر غردون بمراسلة المهدي وتعيينه سُلطاناً على كردفان، لكن رفض الأخير مثل سبباً مباشراً في اتخاذ غردون موقفاً متشدداً من المهدي.

31- شقير: مرجع سبق ذكره. ص 506.

32 – تشرشل: مرجع سبق ذكره. ص 69.

33- شقير: المرجع أعلاه. ص 527.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

2- على الرغم من أن المهدي صاحب منهج مُتشدد ولكن مع ذلك كان أكثر إدراكاً لمكانة غردون وأهميته، لذلك خاطبه بقدر كبير من التسامح والاعتدال.

3- أخفق غردون في تقييم شخصية المهدي ومكانته وأهميته وتجاهل مكانته الدينية والسياسية، لذا اتسم تعامله مع المهدي بقدر كبير من التشدد والتعجرف وعدم المبالاة.

4- لعبت شخصية غردون المتدينة، وآماله التي وضعها على حملة الإنقاذ- لعبت دوراً في المصير الذي انتهي إليه.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/04/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N21 العدد الواحد والعشرون: ص.ص507-522
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المراجع:

أولاً- المراجع:

جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان. ط 1. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1959م.

نعوم شقير: تاريخ السودان. تحقيق: محمد ابراهيم أبو سليم. دار الجيل. بيروت. 1981م.

ونستون تشرشل: حرب النهر السودان 1898م. ترجمة: عبد الله محمد سليمان. دار جامعة القرآن الكريم للطباعة. الخرطوم. 1999م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

C.G. GORDON, The Journal of major At Khartoum, Printed From the original MSS, The Riverside Press, Cambridge, 1885,

Abbas Ibrahim. M. The British debate on the containment of the Sudanese Mahdist Revolution Nov 83. Feb 1885, p 15

ثالثاً: الوثائق:

وثيقة من المهدي إلى غردون، شوال 1301هـ، دفتر النجومي، مهدية 26/36/8/1، دار الوثائق القومية الخرطوم.

وثيقة من المهدي إلى غردون، 2 محرم 1302، مهدية 17/3/9، دار الوثائق القومية الخرطوم.

وثيقة من المهدي إلى غردون، 19 ربيع أول 1302هـ، إنذارات ((ب)) مهدية 252/3/8، دار الوثائق القومية.

وثيقة من المهدي إلى غردون، 21 ربيع أول 1303، مخطوط يوسف ميخائيل، مهدية 72/11/18 دار الوثائق القومية.